

في فكر " مالك بن نبي "

" صالح الشورة "

- أكاديمي أردني -

تعرف القراء في العالم العربي على كتابات مالك بن نبي منذ أكثر من خمس وعشرين سنة إذ صدرت الترجمة العربية لكتاب "مستقبل الإسلام" عن المكتبة العصرية ببيروت. ولكن الترجمات العربية لكتب مالك بن نبي التي ألفها باللغة الفرنسية لم تظهر بصورة متتابعة، إلا ابتداء من عام 1957 عندما ظهر كتابه "شروط النهضة" في ذلك العام، ثم نتابعت مؤلفاته فيما بعد.

دارت أفكار مالك بن نبي حول محور الحضارة والنهضة، ولذلك نجد كتبه جميعها قد صدرت تحت عنوان ثابت هو "مشكلات الحضارة"، وقد تميز منهجه بالمنطق الصارم والتأمل العميق والقدرة على التيسيل ومن هنا فقد كره الثثرة ونفر من الزخرفة اللفظية وفضل الصور العقلية فاتسم فكره باليوية والتركيز والفعالية. فكانت أفكاره بالأساس تعبيراً عن رؤية منهجية واضحة، وكان وديعاً عرفياً، استطاع إدراك أزمة الأمة الفكرية فطرح الحلول للنهوض بواقعها المؤلم فما كان من مالك بن نبي انسحب على حاضر الأمة في واقعها المعاصر.

مالك بن نبي وحركة النهضة

رأى مالك بن نبي بأنه كان لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده دور كبير في إنكاء حركة النهضة في العصر الحديث من الزاويتين السياسية والاجتماعية، إلا أنه خالفهما الرأي بأن قال: "أن المشكلة ليست أن نعلم المسلم عقيدة هو يمثلها وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها"، وحدد بن نبي أسباب تعثر النهضة الإسلامية الحديثة في ثلاثة عوامل "عدم تشخيص غاية النهضة وعدم تحديد المشكلات الاجتماعية تحديداً جيداً وعدم تحديد الوسائل"، وأدى ذلك إلى التيه والضياع مع التبذير في الوسائل لأن الحركة أصبحت تخضع للصدفة وبالتالي لم تأت بنتيجة في اتجاه معين وفي وقت معقول. ورأى بن نبي بأن سير النهضة الإسلامية الحديثة يشير إلى أنها كانت تتجه نحو الحضارة ولكن خطأها

أنها كانت تحاول تحقيق غايتها عن طريق الأشياء التي تستوردها من الحضارة الغربية ونسيت أن الأشياء لا تؤدي مفعولها الاجتماعي ولا تؤثر وحدها في بناء الحضارة ولكنها تؤثر بقدر ما يضاف إليها من دوافع نفسية وفكرية إذ إن البناء كما يقول بن نبي "يتم بالدوافع التي تحرك تلك الأشياء والفكرة التي ترتبها في العملية الاجتماعية". ما يلفت الانتباه في أفكار بن نبي قوله بأن سبب الانحطاط في العالم الإسلامي لا يعود إلى الاستعمار، بل إلى القابلية للاستعمار، وقد ركز على هذا الجانب في أغلب مؤلفاته وظل يؤكد على هذا القاعدة حتى وصل إلى نتيجة في أواخر حياته إلى إن السبب في تأخر نهضة العالم الإسلامي يقع على عاتقي "الاستعمار وقابلية الاستعمار". وبالتالي وزع المسؤولية على هذين العاملين توزيعاً منصفاً، حين قال "إن الدهاء والمكر والخداع والنهم والشراسة من نصيب الاستعمار وأن الدناءة والسفالة والنجاسة والخبث والخيانة من نصيب القابلية للاستعمار".

حديث الحضارة عند مالك بن نبي.

شغلت قضية النهضة في العالم الإسلامي، المفكرين والمصلحين وكان مفكرنا أحد هؤلاء بل اعتبره البعض أبرز المفكرين العرب الذين اهتموا بقضية الحضارة بعد ابن خلدون، إذ ركز تفكيره حول هذه القضية من أجل تصحيحها، دراسة مشكلاتها مدركاً بأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته. فامتق تعريبنا واسعا للحضارة، يتحدد عنده في ضرورة "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيج لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه". ظل مالك يهمس في وعي الأمة بلغة القرن العشرين، فأظهر أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات، ووضع الاستعمار تحت المجهر؛ فحلل نفسيته، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة، وخاصة المسلمين، ووضع لهم معادلات وقوانين "الإقلاع الحضاري" ولكن الأمة لم تقلع حضارياً؛ وذلك إما لثقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها، وإما لضعف المحرك المقرر أن يقلع بها، وإما لاجتماع السببين معاً.

ومع ذلك فقد بقيت هذه المعادلات والقوانين نظريات مفيدة للمحركين الذي يهتمون بانطلاق المشروع الحضاري للأمة.

رأى بن نبي أن بناء الحضارة لا يكون عن طريق تكديس منتجات حضارة أخرى إذ أن ذلك يؤدي إلى عملية مستحيلة كما وكيفاً إذ لا يمكن لحضارة أن تتبعنا روحها وأفكارها كما أنه لا يمكن شراء كل أشياء الحضارة ولو تم ذلك جدلاً فأننا نحصل على حضارة شبيهة أو تكديس لمنتجاتها. ولهذا فالحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأن الحضارة إبداع، وليست تقليداً أو استسلاماً وتبعية كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى. أدرك مالك بن نبي أن الحضارة لا تتم بصورة تلقائية بمجرد وجود العناصر الثلاثة، التي ركز عليها في فكرته وهي "الإنسان والتراب والوقت". بل رأى بأن وجودها يقتضي وجود عامل آخر يؤثر في مرجع هذه العناصر وهو الفكرة الدينية أو العقيدة حيث قال "إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة ما دام هناك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة الإنسان والتراب والوقت لتتركب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة". لم يدع بن نبي إلى تقليد الحضارة الغربية لأن هذه الحضارة في رأيه قد انتهت إلى إفلاس محزن. فكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، ويأين العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح بصره إلى ما حوله مما يحيط به من الأشياء ولم يعد العالم ينتظر الخلاص على يديها، بينما الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسول قبلها، امتد خيارها نحو التطلع الغيبي وما وراء الطبيعة أي نحو الأفكار. فمن أهم الخصوصيات التي ميزت نشوء الحضارة الإسلامية هو أن نشوءها سببه "الوحي الرباني" مما جعلها حضارة خالدة خلود المبادئ والتعاليم التي تحملها، لذلك دعا بن نبي إلى حضارة أصيلة متميزة، الذي بدوره رتب على العالم الإسلامي أن يقطع المسافة التي تفصله عن التقدم بالتخطيط المنظم الواعي الهادف إلى استغلال إمكانياته بطريقة صحيحة. على أن يتم تقدمه على أساس من التعادل بين الكم والكيف، بين الروح والمادة، وبين الغاية والسبب وإن يبقى محافظاً على معنى "القيمة الخلقية" التي فقدتها الفكر الغربي الحديث، ومتحلاً من الفوضى والأوهام، متحرراً من عقدي الاستحالة والتساهل

مؤمناً بأن الحضارة مرهونة بتغيير النفس إذ أنها لا تتبع إلا من ذات الفرد وداخل الجماعة مع التفهم الواعي لواقعه وأن يبدأ حركته على ضوء فكرة دينية تحددتها تربية اجتماعية تستلهم قواعدها من علوم التاريخ والنفس والمجتمع لتحقيق المثل الأعلى. كانت هذه الأفكار أنموذجاً يسيراً لأفكار مالك بن نبي، الذي تميز برؤية جديدة وعمق في التحليل وتأمل في التاريخ والاجتماع وعلم النفس، بهدف إحداث بناء فكري متكامل يحدد الشروط النفسية والموضوعية للبناء الحضاري، ويرسم شروط النهضة داعياً إلى اتباع سبيل الأصالة وعدم تقليد الآخرين لأن التميز والابتعاد عن التبعية هما الشرطان الأولان لبناء الحضارة. فكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح وابتعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجاً محدداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ.